﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق: 11 - 14]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

كُلُّ ما يخبِر بهِ القرآنُ من بعثٍ وحساب جدٌّ لا هَزْلَ فيه

بعد أن اشتملت الآياتُ السّابقةُ مع وجازَتِها على الذُّروة العُليا مِنَ البلاغَةِ في إثْبات البَعْثِ والجَزاء والوحدانيَّة للّه سُبْحانَه، إلى غيرِ ذلكَ مِن بُحورِ العُلوم، فثبَت أنَّ القرآنَ كلامُ اللّه تَعالى، وثبت أنَّ كلَّ ما فيه حقٌّ مع مُنازَعَتِهم في ذلك كُلِّه؛ اقْتَضى الحالُ في هذه الآياتِ الإقسامَ على حَقّيةِ القرآنِ الكريمِ وجدّيَّته فيما يُخْبِرُ بهِ[1].

الرَّدُّ على تَكْذيبِ الكُفّار بما أخبَر به القرآنُ مِنْ بعث الإنسان وحِسابِه

ولَمّا ذُكِرَ في الآياتِ السّابقةِ الدَّليلَ على إمكان البعث، وتَبْيينِ قُدْرَة اللّه تعالى على إرجاع الإنسانِ ومُحاسبته ومعاقبته؛ ناسَب التَّعقيب بتأكيدِ أنَّ ما فيهِ قولٌ فصْلٌ لا هَزْلَ فيه، وفي ذلك إبطالٌ لِما رماهُ به الكُفّار مِن أنَّ أخباره غيرُ صادِقَةٍ، لا سيّما عندما أخبرَهُم بإحْياءِ الرِّمَمِ الباليَة[2].

❁ شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾: (رجع) أصْلٌ كَبيرٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ، يَدُلُّ عَلى رَدٍّ وتَكْرارٍ، تَقولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا؛ إذا عادَ، فالرُّجوعُ: العَوْدُ إلى ما كانَ منهُ البَدْء، والرَّجْعُ: الغَيْثُ، وهوَ المَطَرُ في قَوْلِهِ جَلَّ وعَزَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾، وذلِكَ أنَّها تَغيثُ وتَصُبُّ ثُمَّ تَرْجِعُ فتَغيثُ[3]، وقيل: هو العَوْدُ؛ أيْ: تعودُ كُلّ عامٍ إلى ما كانَت عليهِ[4].

2) ﴿ٱلصَّدۡعِ﴾: (صدع) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى انْفِراجٍ في الشَّيْءِ،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 382.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 266.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجع).
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنة: 10/ 497.

يُقالُ: صَدَعْتُهُ فانْصَدَعَ وتَصَدَّعَ، والصَّدْعُ: النَّباتُ؛ لِأَنَّهُ يَصْدَعُ الأَرْضَ؛ أيْ: يَشُقُّها، في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾[1].

3) ﴿فَصْلٌ﴾: (فصل) كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلى تَمْييزِ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ وإبانَتِهِ عَنْهُ، يُقالُ: فصَلْتُ الشَّيْءَ فصْلًا؛ وهو: إبانَةُ أَحَدِ الشَّيْئَيْنِ مِنَ الآخر، حتَّى يكونَ بَيْنَهُما فُرْجَةٌ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ معناه: فاصلٌ بَيْنَ الحقِّ والباطِلِ[2].

4) ﴿بِٱلْهَزْلِ﴾: (هزل) كَلِمَتانِ في قياسٍ واحِدٍ، يَدُلّانِ عَلى ضَعْفٍ، فالهَزْلُ: نَقيضُ الجِدِّ، وهو كُلُّ كلامٍ لا تحصيلَ له ولا ريع تشبيهًا بالهُزالِ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ معناه: ما هو باللَّعِب[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآياتِ أَقْسَمَ اللّه سُبحانه بالسَّماء ورَجْعِها وهو المَطَر، والأرضِ وصَدْعِها وهو النَّبات - وكُلُّ ذلكَ مِن آياتِ اللّه تَعالى الدّالَّة على رُبوبيَّتِه وقُدْرَتِه - على كونِ القُرآن الكريم حقًّا وصِدْقًا، وجدًّا لا هَزْلًا، فهو الذي يَفْصِلُ بَيْنَ الحقِّ والباطل، فيُمَيِّز هذا مِن ذاك، ويَفْصل بَيْنَ النّاس فيما اخْتَلَفوا فيه، ويصيبُ الفصلَ الذي يَنْفَصِل عندَهُ المُراد، كما أنَّه يتميَّز من غيرِهِ مِن جِنْسِ الكلام بإصابَةِ المَعاني، فلا يحْتاج إلى تعديل، ولا يلحَظ أحدٌ في بيانه عيبًا ولا خَلَلًا، وهو كذلك الجِدُّ الذي لا هَزْلَ فيه، والحقُّ الذي لا يأتيه الباطلُ من بَيْنِ يديه ولا من خَلْفِه[4].

القرآنُ الكريمُ هو الفصلُ الذي لا عَيْبَ فيه، والجِدُّ الذي لا هَزْلَ به

❁ الإيضاحُ اللّغويّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الجُمْلَةِ الافتِتاحيَّة ودلالتُها:

جُملة: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ وما بعدها مستأنفةٌ استئنافًا

القرآن الكريمُ صادقٌ في إخباره بالبَعْثِ والجزاء وغيرهما

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجع)، والجوهري، الصِّحاح: (صدع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، والمعجم الاشتقاقيّ: (فصل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هزل).
(4) ابن قيِّم الجوزيَّة، التِّبيان في أقسام القرآن، ص: 107.

ابتدائيًّا؛ افتُتِح فيها الكلامُ بالقسَم بالسَّماء ورَجْعِها، والأرض وصَدْعِها؛ تأكيدًا لصِدْقِ القُرآن في الإخبار بالبَعْثِ والجزاء، وغير ذلك مِمّا اشْتَمَل عليهِ مِنَ المَوْعِظَة والهُدى، والتَّنويهُ بهذا غرضٌ مِن أغراضِ السّورة[1].

بلاغَةُ القَسَم بالواوِ:

في المُقْسَم به دلائلُ خيرٍ ونفعٍ تَسْتَدْعي التَّنقيبِ عنها

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ﴾ هي واوُ القسَم، الدّالَّةُ على أهمّيَّة ما يُقْسِمُ به الله تعالى وعُلوِّ شأنه، والمُشَوِّقةُ إلى المُقْسَم عليه، والمُشيرةُ إلى ضرورة التَّنبُّه على ما فيه من دلائلِ القُدْرَة والخَيْر، ففي القَسَم تشويقٌ إلى ما يَرِدُ بعدَهُ، وإشعارٌ بأهمّيَّة المُقسَم عليه، وهو مَعَ ذلك يَلْفِتُ ألْبابَ السّامعين إلى الأمور المُقْسَم بها؛ لأنَّ بعضها من دلائل عظيم القُدرة الإلهيَّة المُقتَضيَة وحدانيَّة الله تَعالى، وإبطالِ الشَّريك، وبعضُها مُذكِّرٌ بقُدرةِ الله على كُلِّ شيء؛ إذِ القسمُ لا يكون إلّا بشيء ثابتِ الوقوع، وبعضُها بما فيه من الإبهام يوجِّه السّامعين إلى تَطَلُّبِ بيانِه[2]، والتَّنقيب عمَّا فيه من دلائل النَّفع والخير للخَلائق أجمعينَ.

وَجْهُ إعادة القَسَمِ بـ (السَّماءِ):

في السَّماء كثيرٌ من دلائلِ عظمة اللـه تَـعـالى وقُـدْرَتـه على البَعْثِ وإنزال القرآنِ الكريمِ

أعاد النَّظْمُ الكريمُ القَسَمَ بـ (السَّماءِ) مع قُرْبِ العَهْدِ به؛ لِما فيها مِن دلائلِ عظمَةِ الله تَعالى وقُدْرَتِه على البَعْثِ والحِساب والجزاء، وقُدرَتِه أيضًا على إنزالِ القُرآنِ على رسولِ الله ﷺ صِدْقًا مُحكمًا خاليًا مِنَ الهَزْل، فضْلًا لا يُمْكِنُ أن يكون لأحدٍ بعدَهُ كلامٌ أو حُكْمٌ، ذلك أنَّ مَنْ بنى السَّماء ورَفَعَها قادِرٌ على إنزالِ القرآن على رسولِهِ ﷺ، ولَن يكونَ كلامُه إليهِ إلّا حقًّا لا باطلَ فيه، وجِدًّا لا هَزْلَ معَهُ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 366.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 237.

سِرُّ الوَصْفِ بـ ﴿ذَاتِ﴾:

السَّماء مصدَرُ عطاءاتٍ وخيراتٍ لا تَنْقَطِعُ

أوثِر وصفُ (السَّماءِ) بـ ﴿ذَاتِ﴾ التي بمعنى: صاحبة؛ للدَّلالة على أنَّ ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ صفةٌ مُلازِمةٌ لها، وأنَّه من ماهيَّتها الأساسيَّة، فهي ليسَت مُجرَّد سماءٍ تَرْجِع، بل هي صاحبةُ الرَّجع ومصدرُه، ما يعني قُدرة السَّماء على إعادة الأشياء، مِثْلَ دورةِ المياه التي تَتصاعَدُ من الأرض ثُمَّ تعود إليها على شَكْلِ مطَرٍ، أو الموجات والإشارات التي تُرسَل إلى الفضاء ثُمَّ ترتَدّ إلى الأرض، وهذا التَّعبير يُبْرِز خاصّيَّة العطاء والدَّوامِ في السَّماء كأنَّها عمليَّة مستمرَّة من الإرسال إليها والإعادةِ منها.

دلالة التَّعبير بـ ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾، ووجهُ مُناسَبَتِه للمُقسَم عليه:

إصلاحُ القرآنِ الكريمِ للنّاس كإصلاحِ المَطَر لأحوالِهم

المُراد بـ ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ هو الغَيْثُ، وأُضيفَ إلى ﴿ذَاتِ﴾ لأنَّ السَّماء تغيث ثُمَّ ترجع فتغيث وهكذا، أو لأنَّها تعود كُلَّ عام إلى ما كانت عليه من مَطَرٍ في العام السّابق[1]، وقد ذَكَرَ البيانُ القرآنيُّ من أحوال السَّماءِ هُنا ما لهُ مناسبَةٌ لِلمُقْسَم عليه، وهو الغيث الذي به صلاحُ النّاس، فإنَّ إصلاح القرآنِ للنّاس كإصلاح المطر، وفي الحديث: «مَثَلُ ما بَعَثَني اللّه به مِنَ الهُدَى والعِلْم، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثيرِ أصابَ أرْضًا، فكانَ مِنْها نَقيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأَنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فنَفَعَ اللّه بها النّاسَ، فشَرِبوا وسَقَوْا وزَرَعوا...»[2].

البَعْثُ حياةٌ تَعْقُبُ حياةً سابقة، شأنُه شأنُ المَطَرِ الذي يأتي عقِبَ مطَرٍ قبلَه

وفي اسم ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ مُناسبةٌ لِمَعْنى البَعْثِ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾، وفيه مُحَسِّنُ الجناسِ التّامِّ، وفي مُسمَّى ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ - وهو المَطَرُ المُعاقِب لمطَر آخر - مُناسبة لـ ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ بمعنى البَعْثِ؛ فإنَّ البعث حياة عقِبَ حياةٍ سابقَةٍ[3].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنَّة: 10/ 497.
(2) أخرجه البُخاري في صحيحه، برقم: (79)، ومُسلم في صحيحه، برقم: (2282).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 266.

وجه العَطْفِ بالواو:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ لعطفِ ما بعدها على ما قبلها، ووجهُ العطف بينَهما أنَّه لمّا ذَكَرَ الأمرَ العُلْوِيَّ بادئا به لشَرَفِه؛ أَتْبَعَهُ السُّفليّ[1]، ولأنَّ في الأرض كذلك كثيرًا مِن دلائل العَظَمَةِ والقُدرة على البَعْثِ وإنزال القرآن، ولإتمام المُناسبةِ بَيْنَ المُقسَم به والمُقْسَم عليه[2].

في الأرضِ كثيرٌ من دلائلِ عظمة اللهِ تعالى وقُدْرَتِه على البَعْثِ وإنزال القرآنِ الكريمِ

نوع (أَلْ) في (الأَرْضِ)، ووجهُ إفْرادِها:

(أَلْ) في (الأَرْضِ) لتعريفِ الجِنْسِ، وقد أوثِر التَّعريف بها ليشمل القَسَمُ الأرضَ كلَّها بجميع طَبقاتِها، ويجوزُ أن يكونَ التَّعريف للعَهْدِ، ويكون المُراد: الأرضَ التي هي مَسْكَنكم، الذي أنتُم مُلابِسوه، ومُعاينوه كلَّ وقتٍ ومُلامِسوه[3]، وأفْرَدَها جريًا على ما دَرَجَ عليه البيان القرآنيُّ مِن إفراد (الأَرْضَ)؛ لأنَّها وإن كانت سَبْعًا؛ فلَيْسَ بعضُها فوق بعض، بل بعضُها موالٍ لبَعْضٍ[4]، والنُّكتةُ في إفراد القُرآن لها: أنَّ جمعها ثقيلٌ، وهو مخالف للقياس؛ بأن يُقال في جَمْعها: (أرضون)، ولذا لمّا أراد الله تَعالى الجَمْعَ؛ قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطَّلاق: 12] ولم يَجْمَعْها، ورُبَّ مُفردٍ لم يقَع في القرآنِ الكريمِ جمعُه لثِقَلِه وخِفَّة المُفْرَد، وجمعٍ لم يَقَعْ في الذِّكْر مفردُه كالألباب[5].

الأرضُ مَسْكَنُ النّاسِ الذي يَعْرِفونَه ويُلامِسونَهُ في كُلِّ وقتٍ وحينٍ

سِرُّ الوَصْفِ بـ ﴿ذَاتِ﴾:

أوثر وصْفُ (الأَرْضِ) بـ ﴿ذَاتِ﴾ التي تَعْني: صاحبة؛ للدَّلالة على أنَّ الصَّدْعَ صفَةٌ مُلازمةٌ لها، وأنَّه مِن ماهيَّتها وسِماتِها،

شقوقُ الأرضِ علاماتٌ على الخَيْرِ المخزونِ في باطِنِها

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 382.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 266.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 382.
(4) النَّسفي، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 1/ 489.
(5) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 2/ 261.

فهي تتصدَّع وتتَشَقَّق كثيرًا لتُخرج الماء مِن باطِنِها، والنَّبات مِن داخِلها، فالشُّقوق فيها علامة على الخَير والعطاء المَخْزون في باطِنها، وأنَّه يَخْرُج مِن باطِنها إلى ظَهْرِها، ثُمَّ يعود مِن ظَهْرِها إلى بَطْنِها، وهكذا.

معنى ﴿ٱلصَّدْعِ﴾، وبلاغَةُ التَّعبير به:

مِن دلائل القُدرة على البعث صَدْعُ النَّبات للأرض في الوقتِ المُحَدَّد

﴿ٱلصَّدْعِ﴾ يعني: الشَّقَّ، وهو مصدَرٌ بمَعْنى المَفْعولِ؛ أي: المَصْدوع عنه، وهو: النَّبات الذي يَخْرُج مِن شقوق الأرض، قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾ [عبس: 25 - 29][1]، وأوثر التَّعبير به مِن بَيْنَ أحوال الأرض للقَرْن بَيْنَ ما في القرآن مِن منافعَ للنّاس، وبَيْنَ ما في النَّبات مِن فوائدَ لَهُم، ولِما يَبْرُز فيه مِن دلائلِ القُدْرَة والإعجاز، التي تَبْدو جليَّةً مِن خلال تمكينِ النَّبات على ضَعْفِه مِن شقِّ الصُّخور وإزاحَتِها في الوقت المحدَّد لينبُت ويترعْرَع، والتي يُعَدُّ إنزالُ القرآن مُحْكَمًا خاليًا مِنَ الهَزْلِ، وإعادة الإنسان للحياة بعد مَوْتِه بجانب ذلك أمْرًا سَهْلًا لا صعوبة فيه ولا عَجْزَ عنهُ.

وَجْهُ المُناسبَةِ بَيْنَ الأرض وصَدْعِها وبَعْثِ الإنسانِ:

السَّماء تُماثل الرَّجُل، والأرضُ تماثِلُ المرأةَ

وجْهُ المُناسبة بَيْنَ القسَم بالسَّماء ورَجْعِها والأرض وصَدْعِها للمُقْسَم عليه: أنَّ خروج النَّبات مِن باطِنِ الأرض بعدَ عَوْدَتِه إليها دليلٌ على قدرةِ الله تَعالى على بَعْثِ الإنسان وإرجاعِه، والمعنى: "الأرض التي تتصدَّع وتنشَقّ، فيخرج منها النَّبات والعيون بدءًا وإعادة، دلالة ظاهرة على البعث، فجَمع البيانُ بالقَسَم العالَمَ العلويَّ الذي هو كالرَّجُل والسُّفليَّ الذي هو كالمرأة، فكما أنَّ الرَّجُل يَسْقيها مِن مائه فتَتَصَدَّع عن الولد، فكذلك السَّماء تَسْقي الأرضَ فتَتَصَدَّع عن النَّبات، وكما أنَّها تَتَصدَّع عن النَّبات بعد فنائِهِ وصَيْرورَتِه رُفاتًا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 266.

فيعود كما كان، فكذلك تتصدَّع عن النّاس بعد فنائهم فيَعودون كما كانوا، بإذْنِ ربِّها من غير فرْقٍ أصلًا"[1].

بلاغَةُ التَّوكيد في جوابِ القَسَم:

تأكيد خُلوِّ القُرآنِ الكريمِ من المطاعن التي رماهُ بها الكافرونَ

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ جوابُ القسَمِ، جيء به مُؤكَّدا بـ: إنَّ واللّام المُزَحْلَقة والجُملة الاسميَّة؛ لتأكيد خُلوِّ القرآنِ من المطاعن التي رماه بها الكُفّار، والأباطيل التي افْتَرَوْها عليه، فبَعْدَ البراهين القاطعة والدَّلائل الباهرة السّاطعة على حقّية القُرآن وإتيانه بأعلى البيانِ، قال ذلكَ مُؤَكِّدًا استبعادَ طَعْنِهم فيه بَعْدَ هذا البيانِ[2].

بيانُ مَرْجِعِ الضَّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ وسِرُّ التَّعبير به:

القرآنُ ثابتٌ في أذهانِ النّاس، ولا يغيب عَن عُقولِهم

الضَّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود إلى القرآن الكريم، ويدخل فيه الآياتُ النّاطقةُ بمبدأ الإنسانِ ومعادِه[3]، ووجهُ التَّعبير عنه بالضَّمير مع أنَّه لم يَسْبِق ذكرُه صراحةً لكونِه معلوما من المقام؛ لأنَّ ما مضى في السّورة دالٌّ على أنَّه المُحَدَّثُ عنهُ الآن، وثَمَّ دلالةٌ على أنَّه الثّابت في جميع الأذهان، لا غيبة له عن شيءٍ مِنْها أصْلًا[4].

سِرُّ التَّعبير بلَفْظِ القَوْلِ نكرةً:

القرآنُ الكريم مُركَّبٌ مِن ذاتِ الحُروف التي يتكلَّم بها النّاس، لكنَّه مُختلف عَن كلامِهم

الإخبار عن الضَّمير العائد إلى القرآن الكريم بلَفْظِ القَوْلِ المَسْبوقِ باللّام المُزَحْلَقَة في قوله تعالى: ﴿لَقَوۡلٞ﴾ فيه تأكيدُ كَوْنِ القُرآن مِن جنسِ ما يقوله النّاس، ومُرَكّب من ذات الحروف التي يتكلَّمون بها، وليس فيه كلمَةٌ لا يَسْتَعْمِلونَها، غير أنَّه يَمْتازُ مِن كلامِهم بمَزايا كثيرةٍ أهَمّها الفَصْلُ والإعجازُ، والتَّنكير في ﴿لَقَوۡلٞ﴾ يُرادُ به التَّعظيم والتَّفخيم.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 382، 383.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 383.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 142.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 383، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 266.

سرّ وصفِ القَوْلِ بـ ﴿فَصْلٌ﴾:

كَلامُ الله تَعالى عريقٌ في الفَصْلِ بَيْنَ الحقِّ والباطل

قوله: ﴿فَصْلٌ﴾ صفة لـ (قَوْلٌ)، وقد أوثِر الوصفُ به لبيان أنَّ القرآن ليس كأقوالِ النّاس التي يَعْتَريها اللَّبس والغموض في أحيانٍ كثيرة، والتي لا يُمْكِنُها الوفاءُ بالمعنى، فإمّا أن تزيدَ عليه وإمّا أن تَنْقُصَ عنه، ومِن ثَمَّ لا تأتي مُبيَّنة فاصلة، إنَّما هو كلامٌ لَهُ مِن العَراقَةِ في الفَرْقِ بينَ الحقِّ والباطل ما صار به يُطْلَقُ عليه نفسُ الفَصْلِ؛ أي: يُبَيِّن الحَقَّ ويبطلُ الباطل، والإخبار بالمَصْدَرِ للمُبالغَةِ، والمعنى: إنَّه لقولٌ فاصِلٌ[1].

وجهُ العَطْفِ بالواوِ:

كان الكُفّار ولا يزالون يرمونَ القرآنَ بما ليس فيهِ؛ ليصرفوا النّاس عنه

الواوُ في قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ لعَطْفِ ما بعدها على جُملة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، وأوثِرَ التَّعْبيرُ به بَعْدَ مدْحِ القُرآن بكونهِ فصْلًا لا لَبْسَ فيه، تأكيدًا للأمر بسبَبِ شِدَّة إنكار الكافرين وجَحْدِهم وتغطيَتِهم الحقَّ بالباطل[2]، ويجوزُ أن يُقال: للرَّدِّ على الكافرين؛ إذْ كانوا يزعمونَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ - وحاشاه - جاء بهَزْلٍ؛ إذْ يُخْبِر بأنَّ المَوْتى سَيَحْيَوْن، يُريدون تضليلَ عامَّتهم حين يَسْمَعون قوارعَ القرآنِ وإرشادَه وجزالةَ معانيه، يختلِقون لهم تلك المعاذيرَ ليَصْرِفوهُم عَن تَدَبُّره والتَّأثُّر به، وهو ما حُكيَ عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فُصِّلت: 26][3].

دلالَةُ التَّعبير بـ (ما):

نفيُ كون القرآنِ هَـزْلًا لا جدَّ فيه نفيٌ قاطعٌ حازمٌ

(ما) في جملة: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ هي النّافية العامِلَةُ عمَلَ ليس، وأوثِرَ النَّفي بها؛ لكونِها آكدَ في النَّفي من (ليس)، وأوسعَ استعمالا منها أيضًا؛ لأنَّ (ليس) مُختصَّةٌ بنفي الجُمَل الاسميَّة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 383، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 267.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 383.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 267.

فحسب[1]، والنَّفي بـ (ما) أنسبُ هُنا؛ لأنَّها تُفيد - بمَعْناها ومَبْناها المختوم بألف المَدِّ - نفيَ كون القرآنِ هَزْلًا لا جدَّ فيه نفيًا قاطعًا حازمًا لا حدودَ له، ولا مجال للشَّكِّ فيه، مهما افترى المُفترون، وادَّعى ذلك المُدَّعون.

دلالة ضميرِ الفَصْلِ ﴿هُوَ﴾:

أُعيد التَّعبيرُ عَن القرآن الكريم بالضَّمير المُنْفَصِل ﴿هُوَ﴾، مع قُرب العَهْدِ بالتَّعبير عنه بالضَّمير المُتَّصل في ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ لِما يَمْتازُ بهِ الضَّمير من تعيينِ المُتَحَدَّث عنه تعيينًا يَحولُ دونَ صَرْفِ الحديث عنه إلى شيء آخر، ولِما يُفيدُهُ التَّعبير به مِن تَقْوِيَةِ وتأكيدِ خُلوِّ القرآنِ الكريمِ مِن الهَزْل في ظاهره وباطنه على السَّواء، والمعنى: ليسَ في شيءٍ مِن القرآنِ شائبةُ هَزْلٍ، بل كلُّه جدٌّ محضٌ لا هوادة فيه[2].

القرآن الكريم خالٍ مِنَ الهَزْلِ في ظاهرِهِ وفي باطنه

نوعُ الباءِ، ووجهُ التَّعبير بها في قوله: ﴿بِٱلْهَزْلِ﴾:

قوله: ﴿بِٱلْهَزْلِ﴾ جارٌّ ومجرور في محلِّ نَصْبٍ خبرُ (ما)، وقد أوثِرَ البيانُ فيهِ بحَرْفِ الباء مع إمكان التَّعبير بدونه؛ لتأكيد انتفاء كون القرآن الكريم هزلًا بأيِّ صورة من الصّور، ولو خلا منهُ التَّعبيرُ فقيل: (وما هو هَزْلًا)؛ لَما كان بالقوَّة التي أفادها التَّعبيرُ بحرف الجَرِّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: 29].

لا هَزْلَ في القرآن الكريم بأيِّ وجهٍ من الوجوهِ

دلالةُ تعريف (الهَزْلِ)، وفائدةُ نفيهِ:

(أل) في (الهَزْلِ) لتعريف الجنسِ، والمعنى: أنَّ القُرآن خالٍ من الهَزْلِ بجَميع صوَرِهِ وأنواعه، أي: ليس القرآنُ بالضَّعيف المرذول الذي لا طائلَ تحتَهُ، وفائدةُ نفي الهزل عنه: التَّأكيد على كونه مَهيبًا في القلوب، مُعظَّمًا في الصُّدور، يرتَفِعُ به قارئُه وسامعُه عن أن يُلِمّ

مِن حقِّ القرآن أن تهابَهُ القلوبُ وتُعَظِّمه النُّفوسُ، ويهتديَ به الغواةُ وتخضعَ له الرِّقابُ

(1) السّامرائي، معاني النَّحو: 4/ 191.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 142، والبقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 384.

بهَزْلٍ، ويعظُم به في أعين العامَّة والخاصَّة، وأنَّ مِن حقِّه أن يهتديَ به الغواةُ، وتخضع له رقابُ العُتاة[1]، وفي نفي الهزلِ عَن كلام الله تَعالى أيضًا تعريضٌ بالكافرين، وتوبيخٌ لهم على ما رَمَوْا به كلامَ ربِّ العالمينَ.

❁ الفُروقُ المعجميّة:

الصَّدْع والشَّقُّ والفَلْق:

التَّعبير بالصَّدع هو الأنسبُ لحديثِ السّورة عن البَعْثِ، وعَنِ القرآنِ ومَنافِعِه

الصَّدعُ هو: الشَّقُّ في شيءٍ له صلابةٌ[2]، والشَّقُّ: الصَّدعُ البائنُ، ومعناه: صدعُ الشَّيء الشَّديد صَدْعًا نافذًا إلى عُمْقِه[3]، أمّا الفَلْق فهو شقّ الشَّيء وإبانةُ بعضِه عن بعضٍ[4]، ولمّا كان الحديثُ عَن القرآنِ ومنافعه، وحقّيَّته وجِدِّه؛ ناسب التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلصَّدۡعِ﴾ الذي مِن مَعانيهِ: النَّبات؛ لمُناسَبَتِه لحديثِ السّورة عن البَعْثِ وعَنِ القرآن، بما فيه مِن أوجُهِ التَّشابه بين منافعِ القرآنِ ومنافِعِ النَّبات، ولِما في إخراجِهِ مِن شُقوقِ الأرض من الدَّلالة على قُدْرَة الله تعالى على الإحياءِ والبَعْث، بخلاف الشَّقِّ والفلق الدّالَّين على مجرَّد الانفراجِ بلا خروجٍ ولا إرْجاعٍ.

الهَزْل واللّهْو:

القرآنُ الكريمُ لا يَشْغُل النّاس عمّا يَعْنيهِم، ولكنَّه يأخذ بأيْديهِم إلى ما يَنْفَعُهُم

الهَزْلُ: نَقيضُ الجِدِّ؛ وهو كُلُّ كلامٍ لا تحصيلَ لَه ولا ريع تشبيها بالهُزالِ، ومعناه: اللَّعب[5]، أمّا اللّهْو فهو: ما يَشْغَلُ الإنسان عمّا يعنيهِ ويُهُمّه[6]، ولمّا كان الحديث عن حقّيَّة القرآنِ وفَصْلِه بينَ الحقِّ والباطلِ ومَنافعِه التي لا تُحْصى؛ ناسَب التَّصريح بـ (الهَزْلِ) الذي

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 142، والبقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 384.
(2) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 3/ 394.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شقق).
(4) الرّاغب، المُفردات: (فلق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هزل).
(6) العسكري، الفروق اللغويّة، ص: 254.

رماهُ بهِ المُشْركون، تعريضًا بهِم وتوبيخًا لهم، وللدَّلالة على انتفائه عن القرآن انتفاءً قاطِعًا، وهذا ما لا يقومُ به التَّعبير بلفظ (اللّهْو)؛ إذِ القُرآن لا يَشْغَلُ النّاس عَمّا يَعْنيهِم، ولكنَّه في الحقيقةِ والواقع يأخُذُ بأيْديهِم إلى ما يَنْفَعُهُم ويُسْعِدُهُم في الدُّنيا والآخرةِ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والستون،
سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 66 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-45-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 66 : المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-45-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6448894 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"